أهمية دراسة النقوش الكتابية العربية فى البنغال

بقلم : الدكتور محمد يوسف صديق
جامعة هارفارد بأمريكا

تحظى دراسة النقوش الكتابيـــة بأهميـــة كبيرة من نواح عديدة . فهى تساعدنا فى تحديد الفترة التاريخية خاصة فى حالة ما اذا ذكر فيها تاريخ النقش .

ونلاحظ أن معظم هـذه النقوش تتضمن الحقائق التاريخيـــة عن الحقب الزمنية المختلفة للحكام والوزراء والأمراء وغيرهم . وهذا ما يساعدنا فى تحديد تلك الفترات المتتالية .

كذلك ان النقوش توضح لنـا مستوى الفن فى تطور الكتابـة وزخرفتها وجودتهـا التى وصل إليها الفنانون فى تلك العصور وكذلك تلقى الأضواء على مدى تطور بعض جوانب الفنون والحضارة فى تلك الفترة ومستوى تقدمها .

ونستطيع أن نقول ان دراسة النقوش تعد حلقة تاريخية لها أهميتها تكمل الحقبة التاريخيـــة . ومن الملاحظ أن دراسة الأحجار التى استخدمت فى كتابة هـذه النقوش قد تساعد فى التعرف على المحاجر التى كانت تقطع منها الأحجار فى العصور المختلفـــة . ومن ناحيـــة أخرى تشير إلى المهارة التى وصل إليها الفنانون فى تقطيع هذه الأحجار واستعمالها لأهدافهم الفنية مثل النحت والنقش وكذلك نعرف من هـذه النقوش كثيرا من الأسماء التى ربما لم يرد ذكرها فى المستندات التاريخية أو المصادر الأخرى . وقد تكون هذه الأسماء ذات أهمية

تاريخيـة تزودنا بمعـلومات جـديدة ، وتلقى بعض الأضواء على التنقـلات والهجرات ، وبعض النواحى اللغويـة ، ويمكن أيضا أن نستنبط منهـا بعض المعلومات فى العلوم الاجتماعية والدينية والنظم حيث ان بعض هذه الأسماء الواردة قد تكون مصحوبة بالوظائف أو الحرف أو المذاهب . بالاضافة الى ذلك أن نصوص هذه النقوش قد تزودنا ببعض الحقائق الثمينة عن نظم الحكم والجيش والادارة والسياسة والمعتقدات . فهـذه النقوش كما هو معلوم تشتمل على ألقاب مختلفة وأدعية متنوعة[1] .

ومن جانب آخر فان دراسة النقوش الكتابية قد تفتح لنا مجال مقارنتها بالمصادر الأخرى من وثائق ومخطوطات ومسكوكات ومؤلفات تاريخيـة . فهى تضيف حقائق جديدة وتصحح أخطاء شائعة[2] .

وفضلا عن ذلك فإن دراسة النقوش تساعدنا فى تحقيق الروابط الأسرية بين أصحاب الشواهد والأسماء الواردة فى النقوش المختلفـة . فعلى سبيل المثال نعرف من النقوش فى عهد السلطان حسين شاه بأن اسم أبيه كان سيد أشرف الحسينى ، وورد اسم (أشرف) فى أحد النقوش فى عهد باربك شاه ، ويمكن أن يكون كلاهما نفس الرجل .

وفى مثال آخر ، نرى أن السلطان فيروز شاه الأول تلقب بلقب (دلوى) فى نقش سلهت بتاريخ ٧٠٣هـ / ١٣٠٣م . وهـذا اللقب غالبا يشير الى أن السلطان فيروز شاه كان أصلا من دلهى .

ونلاحظ فى نقش باره درى بأن المعمار (محمد الكابلى) قد استخدم لقب

(١) أهمية شواهد القبور كمصدر لتاريخ الجزيرة ص ٨١ — ٨٥

(٢) نفس المصدر ص ٨١ — ٨٥

(كابلى) . ونستطيع أن نستدل منـه أنـه كان أصلا من كابل قبل استيطانه فى البنغال . وهذا الأمر قد يلقى الأضواء على التنقلات والهجرات من آسيا الوسطى إلى البنغال التى حدثت فى القرون الوسطى لأسباب عديدة ، ومنها هجمات المغول فى تلك الفترة على المراكز الحضاريـة فى آسيا الوسطى ، وهى التى أدت الى هجرة كثير من الفنـانين وأصحاب المهن المعمارية إلى المناطق البعيـدة والمأمونة مثل البنغال . وكثيرا ما تشير هذه النقوش إلى المنشئات والعمائر مثل المساجد و القصور و القلاع و الحصون والأسبلة والجسور . فهى تمدنا بالكثير من المعلومات عن التطور المعمارى والحضارى .

و دراسة النقوش العربية فى البنغال لها أهمية خاصة حيث أن تاريخ هذه البلاد بقى مهملا من قبل البـــاحثين والمؤرخين لمدة طويلة ، ونادرا ما اهتم به المؤرخون المسلمون فى القرون الوسطى[١] . والسبب فى هذا ربما يعود الى بعد البنغال عن دلهى التى كانت مركزا حضاريا لشبه القارة الهندية . وقد تجمع فيها العلماء و المؤرخون . و جدير بالذكر أن السلاطين المسلمين بدلهى كانوا يرعون المؤرخين رعايـــة خاصة ، و يمنحونهم الأموال الطائلة والجوائز الثمينة ، الأمر الذى جعلهم يعيشون على أكتاف هؤلاء السلاطين . فلم يهتموا إلا بهم وبمـــا حولهم ، فأهملوا أحداث المناطق البعيدة مثل البنغـــال ، وحتى لو أشاروا إليها

---

(١) و من أوائل المؤرخين المسلمين الذين تناولوا دراسة تاريخ البنغـــال بشىء من التفصيل (أبو عمر منهاج الدين بن سراج الدين الجوزانى) الذى ألف كتابا سماه (طبقات ناصرى) . وحيث أن المؤلف عاش فى البنغال فترة من الزمن ، فقد تكلم عنها كثيرا على ضوء مشاهداتـه بنفسه ، أما بقيـة المؤرخين فجميعهم كتبوا عن تاريخ البنغال بشكل موجز .

فانهم لم يذكروا إلا ما يؤيد السلطنـة . فكانوا يمـدحون سلاطين دلهى ، ولهذا نجد أن المخطوطات و الوثائق التاريخية التى دونت فى دلهى فى تلك العصور لا تساعدنا كثيرا فى دراسة الحقائق التاريخية عن البنغال . وأن هذا الأمر يزيد من أهمية دراسة النقوش العربية فى البنغال ، لأنهـا تعطينا معلومات مفيدة عن تلك الفترات التى نعالجها ، وتساعـد على وقوفنا على الحقائق التاريخية . والحق أن معظم هذه النقوش تحمل تاريخ الانشاء وأسماء السلاطين والحكام والأمراء الذين أمروا بانشاء العمائر ، الأمر الذى يعتبر ذا أهميـة كبيرة عنـد المؤرخين . ونستطيع أن نقول إن تاريخ البنغال لا يمكن تدوينه إلا بعد الاستفادة من هذه النقوش الكتابية التى تلعب دور الجسر للربط بين الوقائع التاريخية المتفرقة .

وتحتل البنغال مكانا هاما فى العالم الاسلامى فى الوقت الحـاضر اذ يبلغ عدد سكانها أكثر من مائـة مليون من السكان المسلمين فضلا عن استمرار حكم المسلمين بها أكثر من ستـة قرون . وعلى الرغم من أهمية البنغال تاريخيا وحضاريا ، فقـد بقيت هذه البلاد مهملة عند مؤرخى العرب سواء من الناحية التاريخية أو الحضارية أو السياسية . ولعل السبب فى هذا الأمر البعد الجغرافى للبنغال عن العـالم العربى وقلة وجود الاتصالات السياسيـة بينهم فى القرون الوسطى ، اذ لم تصبح البنغـال جزءا اداريا أو سياسيا لأى دولة عربيـة فى القرون الوسطى وبعدها .

وبلاد البنغال قـد ازدهرت فيها الحضارة الاسلامية مع انتشار الاسلام فى أراضيها . فشيدت فيها العمائر وقامت فيها الصناعات والفنون الاسلامية تحت رعايـة حكامها المسلمين . فالمتاحف فى البنغال و الهنـد وفى العالم العربى تزخر بالتحف الأثرية الاسلاميـة من البنغال ، ومما تجدر الاشارة إليـه أن الحكام

المسلمين قد اهتموا اهتماما خاصا بالخط العربى حيث اتخذوه عنصرا هاما من عناصر الزخرفة على الاحجار والأخشاب والمعادن والمنسوجات وفى المخطوطات والتحف الأخرى . ولا نبالغ او قلنا إن البنغال يمكن أن تعتبر من أغنى البلدان الأسلامية من ناحية وجود النقوش العربية حيث يصل عددها ما يقرب من مائتين فى العصر السلطانى . ولاشك أن معظمها كانت تتميز بالجودة المتناهية والجمال الأخاذ الذى يدل على ما وصل إليه فنانو ذلك العصر من براعة وجودة فى ذلك الفن .

وتجدر الاشارة إلى أن الأحداث التى تلاحقت على البنغال فى الفترات المختلفة قد أسهمت بشكل كبير فى الحاق التلف بالنقوش العربية والتى تسببت أيضا فى ضياع عدد كبير منها . وكذلك ساعدت البيئة الجغرافية للبنغال على هذا التلف حيث انها تتميز بكثرة الأمطار فى معظم أيام السنة . وهكذا تسبب الاسراع فى تخريب العمائر وضياع معالمها فى وقت قصير . ولا بد أن نشير إلى كثرة عدد الأنهار التى كانت تتحدى المراكز الحضارية باستمرار عن طريق الفيضانات المتعددة فى موسم الامطار ، مثلما حدث مع (غور) وكثير من المراكز القديمة الأخرى[١] .

ثانيا كانت البنغال دائما ساحة للحروب والمنافسات السياسية بين السلطات المحلية والحكومة المركزية بدلهى . فكان كل طرف يغير على الآخر ويعبث فى

(١) معظم هذه المدن والمراكز الحضارية كانت تقع على شاطىء نهر غنغا أو شواطىء بعض أنهار أخرى ، وكانت تتأثر أيضا بعض الاوقات بتغيير خط سير الأنهار ، والمثال على ذلك مدينة (غور) التى هجرها سكانها بعد ما تغير نهر غنغا من خط سيره القديم .

أراضيه مما ساعــد على تدمير العديد من المبانى والحصون والقلاع والأسوار . وقد تأثرت النقوش الكتابية التى كانت توجد فى هذه العمائر سواء كانت دينية أو حربية أو مدنية . ولا بد أن نذكر أن العمائر الاسلامية و نقوشها الكتابيـة قد لحقت بها أضرار كبيرة نتيجة لعبث السكان المحليين فيها الذين كانوا يجلبون المواد البنائية من هذه العمائر لاستخدامها فى منشئاتهم الجديدة . وقد تلف كثير من النقوش خلال هــذه المحاولات بسبب سوء استخدامها[١] . فلا عجب اذا وجدنا احدى هــذه النقوش الكتابية فى جدار بيت أحـد السكان من عامــة الشعب وهو يفتخر ويعتز به . والسبب أن مالك البيت قد جلب هــذا النقش مع الأحجار الأخرى من العمائر القديمة ، ثم استخدمه فى بيته للزخرفة . وهناك دافع آخر وهو أن السكان المحليين من مبتدعـة المسلمين يحترمون جميع هــذه الأحجار التى عليها الكتاب ويجلونها لأنها كتبت بالخط العربى ، بالرغم من أنهم لا يفهمون ما تحتويـه هذه الكتابات من معان ، فيتبركون بها . وفى كثير من الأحيان نجــد أنهم اذا وجدوا نقشا عربيا فى العمائر القديمــة المهجورة ، يحملونه إلى احدى المقابر و يثبتونه فوقه . ثم يصبون عليه الزيت والسمن على سبيل الاحترام والتبرك وبالاضافة إلى ذلك فانهم كانوا يسعون من وراء نقل هذه النقوش إلى المقابر لتضفى عليها نوعا من الجمال .

كما ينبغى ألا يفوتنـا أن نذكر أنه كان من ضمن هؤلاء الذين نقلوا النقوش من مكانها الأصلى هواة الآثار . ومعظمهم كانوا من البريطانيين الذين وصلوا إلى البنغال كموظفين لشركة الهنــد الشرقية ، إذ كان بعضهم لديه هواية

(١) Montogomary Martin : Hist. and Topography of Eastern India ; Vol. IV, P. 71.

خاصة فى جمع الآثار والنقوش القديمة . فنقلوا الكثير من هذه النقوش خلال فترة إقامتهم فى البنغال لاشباع هواياتهم الفنية ، أو سعيا وراء المادة ، فكانوا لايبالون بالأخطار التى قد تلحقهم حيث كانوا يدخلون الأماكن المهجورة والعمائر القديمة المتهدمة للحصول على احدى اللوحات الأثرية . ومعظمهم نقلوا مجموعاتهم إلى بلادهم بعد ما انتهوا من خدمتهم فى الهند[1] .

والحق أن الحكام والسلاطين فى البنغال عبر العصور المختلفة لم يهتموا اهتماما كبيرا بالعمائر الاسلامية وصيانتها والحفاظ عليها . بل تركوها مهملة فى بعض الأحيان . ولم يحافظوا على صيانتها وحراستها . فكانت دائما مكانا للنهب والسلب من قبل هؤلاء الذين كانوا ينقلون بعض حجارتها لاستخدامها فى مبانيهم أو لبيعها لهواة الآثار .



(١) Sayed Mahmudul Hasan; Mosque Architecture of Pre Mughal Bengal; University Press Limited, Dacca. 1971, P. XI.